

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس السادس والعشرون

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين اللهم علمنا بما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما نافعا اللهم اغفر لنا ولشيخنا أجمعين قال :

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ) (٦٨) وقوله تعالى: (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) (٦٩) وقوله تعالى: (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا) (٧٠).

عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: (فمن)؟ أخرجاه

◆ هذا الباب باب نافع مفيد باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

أراد الشيخ في هذا الباب أن يبين أن الشرك يقع في أمة محمد ردا على القبوريين الذين يزعمون أن الشرك لا يمكن أن يقع في هذه الأمة وأن ما يقع منهم من شرك ودعاء لغير الله - عز وجل - أنه ليس كذلك، فأراد الشيخ من عقد هذا الباب الرد عليهم وأن الشرك يقع في هذه الأمة كما وقع في الأمم السابقة،

و"الأوثان" قد تقدم معنى معناها وهي جمع وثن وهي كل ما صور على صورة غير صورة آدمي أو حيوان فإنه يقال عنه وثن فالوثن أعم من الصنم،

◆ استدل بقول الله تعالى { ألم ترى }

يعني ألم تنظر وقد يكون هذه الرؤية علمية أو رؤية بصرية

{ ألم ترى إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب } : أتوا يعني أعطوا وهم اليهود والنصارى فهم أتوا نصيبا من

الكتاب، أرتوا الكتاب كل هذه ألفاظ تطلق عليهم

والمقصود بقوله نصيبا أي قدرا وحظا من الكتاب

والكتاب: هو الكتاب الذي أنزل عليهم وهو التوراة والإنجيل

{ يؤمنون بالجبت والطاغوت } يعني مع كونهم أتوا نصيبا من الكتاب وقامت عليهم الحجة البالغة لكنهم مع ذلك يؤمنون أي يصدقون،

"بالجبت" الجبت كلمة تتناول عدة معاني تدل على الصنم وتدل على السحر وتدل على الكهانة أو الكاهن فالصنم، والكاهن، والساحر يقال عنها جبت،

وَأما "الطاغوت" فإن المراد به في هذه الآية الشيطان لأنه هو رأس الطواغيت، وأما الطاغوت بالمعنى العام فقد عرفه ابن القيم فيما مر معنا في الأصول الثلاثة كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع فهو مأخوذ من مادة الطغيان

◆ فهذه الآية مناسبة لكن لن تظهر مناسبتها للباب إلا بعد عدة نصوص

لأنه قد أثبت في هذه الآية أن الذين أتوا نصيبا من الكتاب وقع منهم إيمان بالجبت والطاغوت مع وجود الكتاب في أيديهم وأن هذه الأمة يقع منها ذلك مع وجود الكتاب بين أيديها فإذا ضمنا هذا الدليل إلى ما سيأتي من قوله ﷺ (لا تتبع سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة) ظهر مناسبة هذه الآية للباب

إذا مناسبة هذه الآية للباب أنه سيكون في هذه الأمة كما كان في الأمتين قبلها اليهود والنصارى من يعبد الجبت والطاغوت لأن هذه الأمة تتبع سنن من كان قبلها

◆ إذا نستفيد من الآية :-

- الدعوة إلى العظة والاعتبار بمن قبلنا لأنه قيل ألم ترى

- نستفيد أيضا وجوب الكفر بالجبت والطاغوت

- ونستفيد أيضا وجوب العمل بالعلم وإلا صار حجة عليك فإن القوم أتوا الكتاب ولكنهم لم يعملوا به

◆ ثم قال: وقوله تعالى { قل هل أنبئكم }

الخطاب لنبينا ﷺ

{هل أنبيئكم} يعني هل أخبركم

بشر من ذلك مثوبة عند الله أي يعني من هو أشر عاقبة وجزاء عند الله - عز وجل - لأنهم كانوا قد ذموا أصحاب النبي ﷺ ذموا المؤمنين ووصفوهم بالشر فقال لهم دعوني أخبركم بمن هو أشر ممن نبذتموه ورميتموه بذلك من هؤلاء؟

"من لعنه الله" أي طرده وأبعده عن رحمته،

"و غضب عليه" يعني حقق عليه غضبه فلا يرضى عليه بعده

وجعل منهم القردة والخنازير يعني مسخهم من هؤلاء هم أصحاب السبت

وعبد الطاغوت أي جعل منهم من يعبد الشيطان، إذا هؤلاء المذمومون هم أصحاب السبت الذين هم طائفة من اليهود فكانوا قد تحايلا على دين الله وصاروا يرمون شباكهم لصيد السمك آخر نهار الجمعة فلا يسحبونها إلا صباح الأحد فيقولون قد تجنبنا الصيد يوم السبت حيث حُرِّم عليكم لكن هذا تحايل ذلك بأن الله ابتلاههم فصارت تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا تظهر على سطح الماء من كثرتها ويوم لا يستبتون لا تأتيهم فتنة وابتلاء لهم فتحايلوا على دين الله بهذه الحيلة يلقون شباكهم يوم الجمعة ويأخذونها يوم الأحد فتكون قد جمعت السمك فيقول لم نصطد يوم السبت فعاقبهم الله - عز وجل - بهذه العقوبة لعنهم وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، ويمكن أن يقال إن هذا الوعيد ينطبق على عامة اليهود فمنهم من لعنه الله وغضب عليه، ومنهم من جعل منهم القردة والخنازير وهم أصحاب السبت خاصة، ومنهم من جعله يعبد الطاغوت فكل هذا حاصل في بني إسرائيل

◊ والمقصود من هذه الآية ومناسبتها للباب:-

أن من أهل الكتاب من وقع منه عبادة الطاغوت مع وجود الكتاب بين أيديهم فلم يحجزهم وجود الكتاب بين أيديهم من عبادة الطاغوت، وفي هذا إشارة إلى أن هذه الأمة، وإن وجد فيها القرآن، وإن وجد فيها صحيح البخاري ومسلم والسنن والمسانيد والمعاجم فهذا ليس بمانع أن يقع من بعض أفرادها من يشرك بالله تعالى

◊ إذا نستفيد من هذه الآية:-

- إمكان وقوع الشرك في هذه الأمة لوقوعه في من كان قبلها

- وفي الآية ما يدل على محاجة المخالفين بالدليل الأظهر فإنهم لما وصفونا بالشر أمر الله نبيه بأن يقول لهم قل هل أنبئكم بشر من ذلك فذكر شيئاً من أوصافهم التي بلغوا فيها غاية الشر

- وفيها أيضاً أن الجزاء من جنس العمل؛ فإن القوم لما وقع منهم ذلك عاقبهم الله بتحقيق الشرك منهم وبقلب فطرهم فلما قلبوا ما أوجب الله عليهم من عبادته وحده التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها عاقبهم بمسحهم قرده وخنازير وفعلاً مسخوا مسخاً حقيقياً حتى إنهم بات من وقع منهم في ذلك قرده وخنازير وليس مع هذا أن القرده والخنازير الموجودة هي من ذريتهم ومن نسلهم لا المقصود أن هؤلاء الذين باشروا تلك المعصية مسخوا في ذواتهم قرده وخنازير

- وفيها إثبات صفة الغضب لله سبحانه وتعالى

◊ ثم قال وقوله { قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً }:

يعني على أمر أصحاب الكهف وذلك أن الله تعالى أعثر على أصحاب الكهف بعد ٣٠٩ سنين،

قال الله - عز وجل - { وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها } من الذين أراد الله أن يعلموا أن وعد الله حق الناس في زمانهم إذا كان الناس في زمانهم زمان بعثهم من نومهم قد اختلفوا في البعث هل البعث حقيقة أم ليس كذلك فأقام الله هذه الآية البينة لتكون تعزيراً لإثبات عقيدة البعث، قال الله عز وجل { وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً } فالذين غلبوا على أمرهم هم أصحاب السلطة في ذلك الوقت فزين لهم أن ينوا مسجداً على أصحاب الكهف ويتبركون بهم وليس هذا من الله إقرار لهم ولكنه نكير عليهم على فعلهم

◊ إذا ما مناسبة الإتيان بهذه الآية في هذا الباب؟

أن الناس في ذلك الزمان قد وقع منهم الشرك مع أنهم كانوا أهل كتاب فما قد تسلل إليهم الشرك مع كونهم أهل كتاب وبنو المساجد على القبور

◊ إذا دلت هذه الآية على:

تحريم اتخاذ المساجد على القبور لأن الله سبحانه وتعالى في سياق النكير عليهم، ودلت على أنه سيكون في هذه الأمة من يفعل ذلك، ودلت أيضا على وجوب الحذر من الغلو في الصالحين
يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتاب [التوحيد الذي هو حق الله على العبيد] في باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان:

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: " لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه " قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: " فمن؟ " أخرجاه .
ولمسلم عن ثوبان - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: " إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقتها ومغارها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر، والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة بعامة وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامة، وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبي بعضهم بعضا " ورواه البرقاني في صحيحه وزاد: " وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، ولا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورا لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى " .

◊ نقل المصنف - رحمه الله - تعالى حديث أبي سعيد - رضي الله عنه -

في الصحيحين، وهو حديث عظيم وأصل كبير في حصول الإختلاف والافتراق في هذه الأمة قال: قال رسول الله ﷺ:

" لتتبعن " هذا قسم اللام ها هنا لام القسم وقد أكد النبي ﷺ هذا الخبر بالقسم وبنون التوكيد الثقيلة،
" لتتبعن "

" سنن من كان قبلكم " سنن يعني طرق ومذاهب،

من كان قبلكم أي من الأمم والطوائف،

"حذو القذة بالقذة" أي أنكم تحذون حذوهم

وما القذة؟ القذة هي ريشة السهم وكل سهم له قذتان متناظرتان تماما فلعظيم تناظرهما جعل هذا مضرب مثل إذا أريد أن يمثل شيء بشيء كأنه توأمه قيل حذو القذة بالقذة،

"حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه" لم مثل النبي ﷺ بجحر الضب مع أنه لا يمكن للآدميين أن يدخلوا

في جحر الضب؟ لأن جحر الضب كما هو معلوم عند العارفين يمتاز بالضيق والخرج والالتواء فكأن النبي ﷺ يقول حتى لو تقحموا المسالك الضيقة الوعرة وركبوا الأمور المنكرة المستهجنة لفعلمت

فهذا الأمر الذي حدث به النبي ﷺ قد وقع،

"قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن" يعني أتعني فيمن كان قبلنا اليهود والنصارى

قال فمن يعني المراد هم فمن يكون غيرهم إذن، وجاء في حديث آخر أنهم قالوا فارس والروم قال فمن الناس إذن،

فبمجموع الحديثين يتبين أن النبي ﷺ أخبر أن أمته ستقلد من كان قبلها من الأمم سواء كان ذلك على الصعيد الديني أو على الصعيد المدني لأن فارس والروم يدلان على الأمور المدنية السياسية إذ هما كيانان سياسيان، وأما اليهود والنصارى فيدلان على الأمر الديني،

وهذا الذي أخبر به النبي ﷺ قد وقع فإن هذه الأمة قد وجد فيها من يضاهاي اليهود والنصارى، ومن يضاهاي المشركين كالفرس والمجوس ومن غيرهم من الأمم الأخرى،

ويؤيد هذا الحديث ما أخبر به النبي ﷺ من طرق عدة من حديث معاوية، وعبد الله بن عمرو، وأبي هريرة، وأنس وغيرهم أن اليهود افتقرت على إحدى وسبعين وأن النصارى افتقرت على ثنتين وسبعين فرقة وأن هذه الأمة ستفتقر على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة قالوا من هم يا رسول الله قال من كان مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي

فهذه النصوص الدالة على حصول الافتراق في هذه الأمة وتبعية هذه الأمة لمن كان قبلها من اليهود والنصارى في افتراقهم واختلافهم تبلغ بمجموع طرقها مبلغ التواتر المعنوي .

وكتاب الله تعالى شاهد على ذلك أن هذا الأمر سيحصل ويقع تفرق، ولم يكن النبي ﷺ ليسوق هذه الأحاديث للخبر المجرد وإنما ساق النبي ﷺ أحاديث الافتراق ونحوها بغرض تحذير أمته ليستنقذ الله تعالى من سبقت لهم منه الحسنى فلا يقع في مهاوي الضلال ولا في سبل الافتراق

ففرق بين الأمر الكوني والأمر الشرعي:

فالله تعالى قد قضى كونا أن يقع الافتراق وأن تتبع فئام من هذه الأمة سبل المشركين والذين لا يعلمون واليهود والنصارى، وأيضا سبق في أمر الله الشرعي النهي عن ذلك فالواجب علينا هو أن نتفادى ما منعه الله تعالى شرعا من التفرق والاختلاف، وأن نلزم السنة وأن نعتصم بالكتاب فخير النبي ﷺ هذا ليس خبرا مجردا بل المراد به التحذير من الاختلاف واتباع اليهود والنصارى

◆ فمناسبة هذا الحديث للباب ظاهرة جدا

إذ أن مراد النبي ﷺ أن يخبر بأن ما وقع في الأمم السابقة سيقع في هذه الأمة، ومن ذلك الشرك فقد وقع الشرك لدى اليهود، ولدى النصارى، ولدى الروم، ولدى فارس فسيقع في هذه الأمة كما وقع فيمن كان قبلها فمناسبته للباب ظاهرة،

وفيه أيضا تكميل للنصوص السابقة التي ساقها المؤلف نحو ثلاث آيات لبيان أن هذه الآيات أوردتها للدلالة على أنها كما وقعت في الأمم السابقة فستقع في هذه الأمة بناء على هذا الحديث

◆ ونستفيد من هذا الحديث العظيم الأصيل:-

- الدلالة على إمكانية وقوع الشرك في هذه الأمة الدلالة على وقوع الشرك في هذه الأمة؛ تبعا لمن سبقها من الأمم

- وفيه أيضا علم من أعلام النبوة لإخبار النبي صلى الله عليه بأمر مستقبل ما كان ليعلمها إلا أن يعلمه الله تعالى إياها

- وفيه أيضا التحذير من مشابهة اليهود والنصارى، ومن مشابهة المشركين

- وفيه أيضا ضرب الأمثال وأن ذلك مما يعين على إيصال المعاني "حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه" فضرب الأمثال يعين السامع على فهم المراد فلا بأس أن يضرب الإنسان الأمثال لتقريب العلم

◊ ثم إن المصنف - رحمه الله - ساق حديث ثوبان وهو حديث عظيم أيضا تضمن معان جليلة أن رسول الله

قال: "إن الله زوى لي الأرض"

"وثوبان" هو مولى رسول الله ﷺ قد صحبه ولازمه وخدمه وكانت وفاته بحمص سنة أربع وخمسين،

ومعنى "زوى لي الأرض" أي طواها طواها، وجعلها كما جاء في بعض السياقات كهيئة الكف كأنها مرآة ينظر فيها بمعنى أنه صورت له الأرض وزواها الله تعالى له حتى رآها كما ينظر في المرآة أو كما ينظر في كفه هذا أمر ممكن أن نتصوره الآن حينما نرى مثلا في العرض التلفزيوني الكرة الأرضية وهي تبسط أمامك مرسومة وتعرض يمنة ويسرة شمالا وجنوبا شرقا وغربا عندما يذكروا مثلا الأحوال الجوية وغير ذلك فهذا نوع من الزوي لكن قطعاً أن ما زواه الله لنبيه ﷺ ليس كما يفعله الناس وإنما هو شيء مطابق للواقع والحقيقة مكن الله نبيه ﷺ من رؤيتها حقيقة لأنه

قال: "فرايت مشارقها ومغاربها" رآها حقيقة،

"وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها" إذن هذا يعني أن ملك أمة محمد ﷺ سيبلغ المشارق والمغرب وهل وقع نعم وقع ما مضى قرن على وفاة النبي ﷺ إلا وقد بلغ المسلمون مشارق الأرض حتى تخوم الصين بلاد الصين شرقا وحتى خاضوا في المحيط الأطلسي غربا وحتى امتلكوا بلاد الأندلس التي تسمى الآن أسبانيا والبرتغال بل تجاوزوا جبال البرانس التي تفصل بين فرنسا وأسبانيا واستولوا على مناطق كبيرة من بلاد الغال كما كانت تسمى بلاد الغال أي بلاد فرنسا وقاربوا أن يحتلوا باريس ومكثوا في بلاد الغال سبعين سنة وقاربوا القسطنطينية وكادوا أن يفتحوها كل ذلك في المئة سنة الأولى التي هي القرن الذهبي لهذه الأمة فقد بلغ ملك هذه الأمة المشارق والمغرب،

وأيضا في علم الله عز وجل في مستقبل الأيام ما لا نحيط به فإن النبي ﷺ قد حدث أن أمته ستمتلك روما كما تمتلك القسطنطينية فقد جاء في الحديث أن رجلا سأل النبي ﷺ أي المدينتين تفتح أولا روما أم القسطنطينية فقال بل مدينة هرقل أولا وهي القسطنطينية وقد فتحها السلطان العثماني محمد الفاتح وكان المسلمون في زمن أسد بن

الفرات تلميذ الإمام مالك بن أنس أن يستولوا على روما حينما استولوا على صقلية وصاروا على مقربة من إيطاليا من روما كادوا أن يفتحوها لولا أن الباباوات والأباطرة بذلوا الجزية الذهبية لدفع ذلك عنهم،

وأما دعوة النبي ﷺ فأنتم تعلمون الآن أن بفضل الله ثم بفضل الوسائل الحديثة قد بلغت كل مبلغ وإن كان لا يزال فثام من الناس لا يعلمون شيء لكنها قد بلغت جميع القارات الآن في أقاصي الأرض، قال "وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها،

وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض " المراد بالكنزين قيل كنز كسرى وهو ملك الفرس، وكنز قيصر وهو ملك الروم وعبر بالأحمر عن الذهب وهو أكثر مال القياصرة، وبالأبيض عن الفضة كنز كسرى لأن غالب أموالهم من الفضة قيل ذلك وقد يكون المعنى أعم فإن عند كلا المملكتين من الذهب والفضة ما عندهما لكن يعبر بالأحمر عن الذهب، وبالأبيض عن الفضة فهذا يدل على أن هذه الأمة تنفتح عليها أبواب الغنائم وهذا ما جرى فعلا فصارت الغنائم تساق إلى حواضر المسلمين في المدينة ودمشق ثم بغداد من كل مكان وتنقل السبايا والأموال العظيمة من فضل الله تعالى ثم من فضل الفتوحات الإسلامية، قال "وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض،

وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة بعامة " أي أن نبينا ﷺ سأل ربه لأمته مسائل منها ألا يهلك الأمة بسنة

بعامة

"السنة" يعني الجذب والقحط يعني ألا يأخذهم قحط وجذب وتسحر عام فيهلكهم أجمعين فاستجاب الله دعاءه في هذه المسألة فلا يقع هلاك عام بسبب القحط والجذب وربما وقع هلاك جزئي،

قال "وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم" هذه هي دعوته الثانية دعا ﷺ ربه ألا

يسلط على أمته عدوا خارجيا من سوى أنفسهم من غيرهم فيستبيح بيضتهم وبيضة القوم هي عقر دارهم وقصبة مملكتهم ولا شك أن أم القرى هي مكة شرفها الله ولهذا حفظ الله هاتين المدينتين مكة والمدينة من أن يستبيحها كافر من خارجهم فاستجاب الله تعالى هذه الدعوى أيضا،

لكن نبينا ﷺ سأله مسألة ثالثة فلم يعطها إياه سأل ربه ثلاث مسائل فأعطاه اثنتين ومنعه الثالثة أعطاه الأولى والثانية ألا يهلكهم بسنة بعامة، وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، وأما المسألة الثالثة فقد دعا ربه ألا يجعل بأسهم بينهم لكن الله تعالى منعه ذلك ولأجل ذا وقع بين المسلمين في مدار التاريخ من الحروب والإحن ما لا يخفى وهذه من حكمة الله البالغة ومن قدره السابق،

قال " وإن ربي قال يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد " إي والله إذا قضى الله قضاء فإنه لا يرد ولا يشكل على هذا قول النبي ﷺ لا يرد القضاء إلا الدعاء فإن المقصود بالقضاء في هذا الحديث ليس القضاء الذي في اللوح المحفوظ، وإنما المراد به شيء انعقدت أسبابه ثم كان الدعاء سبب لدفعه أو لرفعه قبل أن يقع فيكون الذي في أم الكتاب هو أن هذا الأمر قد استوجب الوقوع وأن الله تعالى وفق من استحق وقوع هذا الأمر عليه أن يدعو فيرفع عنه ذلك فيكون الذي في اللوح المحفوظ السبب والمسبب معا وبذلك يزول الإشكال ويقال إن الذي في اللوح المحفوظ لا يتغير (يمح الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) فالذي في أم الكتاب لا يتغير فيه، وأما الذي يكون في صحف الملائكة فإنه يقع فيه المحو والإثبات هذا على أحد التفسيرين في معنى المحو والإثبات وقيل إن المحو والإثبات إنما يتعلق لا بالأقدار وإنما بالحسنات والسيئات، قال " وإني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد،

وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامة " إذن هذا وعد رباني،

" وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم " ولو اجتمع عليهم من بأقطارها فهذا هو الواقع فإن هذه الأمة قد تكالب عليها من بأقطارها من أمم الأرض ومع ذلك فإن بيضتها ظلت محمية مصونة وتقشع الغزاة وذهبوا في مواقف تاريخية لا تخفى التار والصلبيون والاستعمار الأوروبي الحديث كله تقشع عن هذه الأمة وبقيت لهذه الأمة والله الحمد عقيدتها وشخصيتها وطريقتها بل إن بعض الغزاة ذاب في هذه الأمة واعتنق دينها لأنه دين يعلو ولا يعلى عليه كما وقع للتار على سبيل المثال إلا أن الله تعالى قد قال وهذا طبعاً حديث إلهي قدسي لأن النبي ﷺ يرويه عن ربه

قال حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبي بعضهم بعضاً إذن هذه هي الثالثة التي لم يعطها إياه فقد جرى في هذه الأمة من الإحن والخطوب ما جعل بعضهم يقتل بعضاً وبعضهم يسبي بعضاً كما أخبر الله تعالى حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً وهذا أمر لا يخفى على قارئ التاريخ

قال: رواه البرقاني في صحيحه وزاد وهذه زيادة معتمدة ينقلها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كثير

من كتبه،

وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، الأئمة جمع إمام والإمام هو من يقتدى به ولذلك سمي إمام الصلاة إماماً لأن من خلفه من الصفوف يقتدون بصلاته قال الله تعالى (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) فالإمامة تكون في الخير وفي الشر الإمامة بمعنى القيادة فخاف النبي ﷺ على أمته من الأئمة المضلين

والأئمة المضلين إما أن يكونوا، أئمة دنيا أو أئمة دين دنيا بأن يكونوا سلاطين مضلين وأئمة دين بأن يكونوا علماء سوء فهؤلاء وهؤلاء هم أضر الناس على الأمة كما أن أضدادهم وهو الصالحين السلاطين الصالحين والعلماء الربانيين هم أنفع الأمة للأمة لأنه بصلاحتهم يصلح الناس، وقد روى عن الإمام أحمد - رحمه الله - أنه قال لو أعلم أن لي دعوه مستجابة لادخرتها للسلطان فالسلطان الصالح والعالم الرباني نفعهم وأثرهم على الأمة لا يوصف وعلى النقيض كما قال ابن المبارك

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

فإذا كانوا أئمة المضلين مفسدين من أهل الدنيا أو المنتسبين للدين فإن هذا يحصل به فساد عريض

طيب قال: (وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة) صدق

رسول الله ﷺ

إذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة متى وقع السيف وقع ذلك حين انكسر الباب

وقد كان كسر الباب وبداية الفتن بموت عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كما في الحديث الصحيح في صحيح البخاري حينما كان عمر - رضي الله عنه - مع نفر من أصحابه يتذكرون فقال أيكم يذكر الفتن فقال حذيفة فتنة الرجل في أهله وماله وولده يكفرها الصوم والصلاة قال ليس عن هذا أسألك ولكني أسألك عن الفتن التي تموج موج البحر فقال حذيفة وهو متخصص في الفتن يقول حذيفة - رضي الله عنه - كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فكان كما يقال في هذا العصر استشاري في باب الفتن - رضي الله عنه - فقال ما لك ولها يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها بابا يعني بينك وبين الفتن باب اطمئن لا تدركك الفتنة، فقال: عمر - رضي الله عنه - أيفتح الباب أم يكسر فقال حذيفة بل يكسر، قال: أكسرا لا أبا لك إذن لا يرد أبدا هذا من فقهه - رضي الله عنه - قال أكسرا لا أبا لك إذن لا يرد أبدا لأن الباب إذا فتح كان حريا أن يرد لكن إذا كسر معنى ذلك أنه قد انفتحت الفتن ولا يمكن ردها فليل حذيفة بعد ذلك أكان عمر يدري من الباب قال نعم كما يعلم أن دون غدا الليلة فسأله بشر أو بعض أصحابه من الباب قال عمر، عمر - رضي الله عنه - هو الباب الذي كان حائلا دون وقوع الفتن فقتل عمر - رضي الله عنه - قتله أبو لؤلؤة المجوسي ثم بعد ذلك مرت السنين في خلافة ذي النورين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - والأمر تبدو مطمئنة لكن أهل الفتن والشغب من الخوارج كانوا ينخرون في المجتمع المسلم حتى تداعوا وتنادوا للموسم موسم الحج ثم بعد ذلك

أحاطوا بالمدينة وتسلقوا بيت عثمان - رضي الله عنه - وقتلوه وانفتح باب الفتن فدخلت الأمة في أتون من الفتن المتلاحقة يعني تهبط تارة وتخبو تارة وتذكو تارة أخرى فهذا مصداق قول النبي ﷺ وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة

قال: (ولا تقوم الساعة) وهذا هو موضع الشاهد من الحديث للباب

(حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين) الحي هو القبيلة والجماعة الكثيرة يلحق بالمشركين إذن هذا مناسب جدا للترجمة أنه يقع في هذه الأمة الشرك وأوضح منه وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان الفئام هي الجماعات الكثيرة وحتى تعبد فئام من أمتي الأصنام فهذا دليل صريح على وقوع الشرك في هذه الأمة وأن منها يعبد الأوثان إذا هل وقع ما نبأ به النبي ﷺ؟ إي والله هؤلاء الذين يدعون غير الله يستغيثون بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، يسألونهم الشفاء يسألونهم الفرج، تنفيس الكربات، إجابة الدعوات، يطوفون بقبورهم يعكفون عندها هؤلاء في الواقع يعبدون الأوثان فقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ

وقد يقع أيضا بأمر أشد صراحة، فقد جاء في الحديث "أنه لا تقوم الساعة حتى تختلف إليات نساء دوس على ذي الخلصة" ذي الخلصة صنم كانت تعبده قبيلة دوس قبيلة دوس كانت مواطنها ما يسمى الآن بمنطقة الباحة وكان لهم صنم معروف يقال له ذي الخلصة، فأخبر النبي ﷺ أنها لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس يعني مؤخرتهن حول ذي الخلصة يعني يظفن حوله فيعود الشرك في جزيرة العرب، وأما قول النبي ﷺ ((إن الشيطان أيس أن يعبد غير الله في جزيرة العرب ولكنه رضي بالتحريش بينهم)) فهذا إخبار من النبي ﷺ عن حال الشيطان في وقت من الأوقات أنه أيس أن يعبد غير الله في جزيرة العرب لكن هذا لا ينفي ما أخبر به في خبر آخر بأن الشرك يعود في جزيرة العرب

- قال: (وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي) هذا أيضا من أعلام النبوة أخبر النبي ﷺ

أنه سيكون في أمته ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي،

وهذا قد ثبت أيضا في أحاديث أخرى في الصحاح، وفي بعض الأحاديث في غير الصحيحين أنهم سبعة وعشرون رجلا وأربع نسوة فيكون ثلاثون خرج جبر الكسر سبعة وعشرون رجل وأربع نسوة، وقد جرى ظهور كثير من هؤلاء المتنبئين الكذابين ونحن نتكلم عن المتنبئين الذين يكون لهم شأن، وحال، وأتباع،

وأما المتنبئين المغموسين والمجانين فهؤلاء لا حصر لهم نحن نتكلم عن المتنبئين الذين صار لهم أتباع وذكر مثل مسيلمة الكذاب، وسجاح، والأسود العنسي، وطليحة بن خويلد الأسدي وإن كان قد تاب - رضي الله عنه - وغيرهم، ومن وجد في العصور الأخيرة مثل ميزر غلام أحمد القادياني، وكذلك الباب محمد علي الشيرازي ومن يلقب نفسه بالبهاء مؤسس البهائية بهاء الله وغير ذلك من هؤلاء فإنهم ادعوا النبوة بل ادعوا ما هو أكثر من ذلك فهؤلاء المتنبئون سيقع الأمر وفق ما أخبر به النبي ﷺ "ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي" فعقب على ذلك بقوله:

"وأنا خاتم النبيين" والختم هو مهر الشيء فلا يزداد عليه إذا ختم على الشيء يعني مهر عليه فلا يزداد عليه يغلق قال وأنا خاتم النبيين ويصح أن يقال خاتم ويصح بكسرها خاتم لأن الختم كالطبع فهو ختم فلا يزداد عليه، قال: "وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي" هاتان الجملتان قاطعتان لكل تطلع غاؤ مفسد يحاول أن يدعي النبوة ولهذا لما أيس بعض الزنادقة من أثبات النبوة لأنفسهم نفخوا في صورة الولاية فقالوا مقام الولاية هي أصلاً من مقام النبوة حتى قال قائلهم

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

ماذا يريدون؟ يريدون أن يجعلوا يقبلوا السلم يقولون أعلى المقامات هو مقام الولاية ولاية الصوفية ثم دونها النبوة ثم دونها الرسالة والعكس هو الصحيح الرسالة أعلى ما تكون ثم النبوة، وأما الولاية فإنها فرق فإن الولي لا يوحى إليه أصلاً فهي ليست قسيماً ولا ندا للنبي والرسول لكن القوم لما أسقط في أيديهم ولم ينالوا ما اشتهوهم من هذه المراتب ادعوا أن مرتبة الولاية مرتبة سامقة عالية وأنها أعلى من مرتبة النبوة

قال: ﷺ: "ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوره لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر

الله تبارك وتعالى"

هذه الجملة في الواقع توازن ما تقدم فإن من يقرأ الجمل السابقة قد يلحقه شيء من اليأس، والإحباط أن هذا يقع في هذه الأمة فحينئذ يأتي النفس والروح فيخبر النبي ﷺ بأنه لا تزال طائفة،

"والطائفة" هي الجماعة الكثيرة من أمتي على الحق

منصورة يعني أنها مؤيدة بالحق وأنها منصوره

لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ما الفرق بين الكلمتين؟ لا يضرهم من خذلهم عمليا ولا من خالفهم علميا:

- لا يضرهم من خذلهم عمليا كالمثبطين الذين إذا قيل لهم قوموا معنا انصروا دين الله مروا بالمعروف انهوا عن المنكر قالوا هلك الناس لا فائدة لا جدوى لا تعرض نفسك للمشاكل إلى غير ذلك فهذا في الحقيقة خذلان وتثييط - أعاذنا الله وإياكم - .

- النوع الثاني من المخالفة هو المخالف في الحق فينكر أن هذا هو الصواب وأن هذا هو الحق يقال لهم يا قوم هذا الشرك الذي بعث الأنبياء برده فيقولوا لا لا هذا مجرد يعني تقرب للصالحين واستشفاع بهم ونحو ذلك ثم يقومون بتسليك وتسويق هذه الأمور الشركية والبدعية بين الناس، إذن هذه الطائفة المنصورة لا يضرها من خذلها ولا من خالفها .

"حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى" ما أمر الله الذي سيأتي؟ الساعة الواقعة أنها ساعة المؤمنين ليست الساعة الكبرى، وذلك أن أمر الله عز وجل يراد به ها هنا الريح الطيبة التي يبعثها الله تعالى في آخر الزمان ريحها أطيب من ريح المسك، ومسها ألين من مس الحرير فتدخل خياشيم كل مؤمن فتستل روحه فلا يبقى على وجه الأرض مؤمن ويبقى في الأرض شرار الخلق كما تقدم معنا قوم لا يقولون الله الله يتهارجون تهارج الحمر ينزو بعضهم على بعض كما تنزو الحمر حياة بهيمية فعليهم تقوم الساعة فالساعة التي بمعنى خراب العالم لا تقوم على مؤمن لا تقوم إلا على شرار الخلق، وأما أهل الإيثار فإن لهم ساعة دون ذلك وهي الريح الطيبة

فأفادنا ذلك بأن الطائفة المنصورة باقية - بحمد الله - لا تنقطع سلسلتها وهذا هو الواقع فإنه لم يزل من حماة السنة ومن حراس العقيدة على مر العصور والدهور من أقامهم الله تعالى في هذه المهمة الشريفة فحفظوا السنن والآثار، ورووا أحاديث النبي ﷺ على وجهها، وانتدبوا لتمييز الصحيح من الضعيف، وذبوا عن السنة، وصبروا في دين الله عز وجل حتى أبقى الله تعالى هذا الدين مصوناً محفوظاً لم يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، والشاهد من هذا الحديث إخبار النبي ﷺ بأنه يلتحق حي من أمته بالمشركين وأن فتام من أمته تعبد الأوثان وهذا مطابق للترجمة .

◆ فلنستمع إلى مسائل الباب

فيه مسائل :

- الأولى : تفسير آية النساء .

[الشرح]: نعم وقد تقدم معنا تفسير قول الله تعالى: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت)

- الثانية: تفسير آية المائدة.

[الشرح]: وهي قول الله عز وجل: (قل أنبأكم بشر من ذلك مثوبة عند الله)

- الثالثة: تفسير آية الكهف.

[الشرح]: (قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا) فهذه الثلاث ينتظمها معنى واحد وهي أنها وقع فيهم الشرك مع وجود الكتاب بأيديهم فكذلك في هذه الأمة

- الرابعة: وهي أهمها ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟ وهل هو اعتقاد قلب؟ أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

[الشرح]: نعم أراد الشيخ الثانية ولا شك أن الأول يدخل دخولا أولياً وهو الإيمان بها بالقلب لكن ما أدخله الشيخ في معنى الآية هو موافقة أهلها موافقة عملية وهذا ينطبق على كثير من المنتسبين للعلم الذين لا يرون بهذه البدع الشركية بأسا، ولا يرفعون بإنكارها رأسا

- الخامسة: قولهم "إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدي سبيلا من المؤمنين".

[الشرح]: نعم يعني إذا كانت يهود قد قالت لمشركي مكة أنتم أهدي سبيلا من المشركين فقد وقع من علماء السوء في زمن الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - من يغلط الشيخ وينصر أصحاب البدع الشركية عليه ويقول أنتم أهدي وأصوب مما يدعوكم إليه مع أنه يدعوهم إلى توحيد الخالق وذم الأنداد وعبادة الله عز وجل فكما وقع أولا وقع آخرا

- السادسة: - وهي المقصود بالترجمة - أن هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة، كما تقرر في حديث أبي سعيد.

[الشرح]: حديث أبي سعيد لتتبعن سنن من كان قبلكم فإذا كان الله قد أخبرنا عن من قبلنا بأنه وقع فيهم ذلك وقع من يؤمن بالجبت والطاغوت، وقع من عبد الجبت وعبد الطاغوت، وقع من اتخذ مسجدا على قبور الصالحين فإنه يقع في هذه الأمة سواء بسواء

-السابعة: التصريح بوقوعها، أعني عبادة الأوثان.

[الشرح]: نعم أين جاء هذا التصريح في رواية البرقاني فقد صرح النبي ﷺ بقوله: ((وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان)) فإذا قال لنا هؤلاء المدافعون عن القبور والوثنية المعاصرة أمة محمد معصومة من الشرك قيل هذا محمد نفسه ﷺ يقول وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان فأنتم أعلم أم رسول الله ﷺ !

- الثامنة: - العجب العجاب - خروج من يدعي النبوة، مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق وأن القرآن حق. وفيه أن محمدا خاتم النبيين ، ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح . وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة وتبعه فئام كثيرة .

[الشرح]: نعم المختار بن عبيد الثقفي وكان قد خرج في أواخر عهد الصحابة، وأقام كتلة بالعراق مع أنه ادعى النبوة، وادعى الألوهية ووقع منه والعياذ بالله شر عظيم حتى أهلكه الله عز وجل فتبعه خلق في وقت مبكر فهذا فعلا مما يدعو للعجب أن يصدق مع أنه كان يظهر الإقرار بنبوة محمد ﷺ وغير ذلك ومع ذلك تبعه من تبعه

- التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية، كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة.

[الشرح]: إي والله هذه بشارة ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوره، ولهذا ينبغي لكل مؤمن وكل طالب علم أن يشرف بالانتماء إلى هذه الطائفة المنصورة، وأن يحرص على معرفة صفاتها وخصائصها حتى يسلكه الله تعالى في سلكها

- العاشرة: الآية العظمى؛ أنهم مع قتلهم لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم.

[الشرح]: إي والله إنها آية لأن الله ينصرهم

- الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة .

[الشرح]: نعم ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوره إلى أن قال حتى يأتي أمر الله، مراده بالساعة ساعة المؤمنين

- الثانية عشرة: ما فيهن من الآيات العظيمة.

منها : إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغرب ، وأخبر بمعنى ذلك ، فوقع كما أخبر ، بخلاف الجنوب والشمال .

وإخباره بأنه أعطي الكنزين .

وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين .

وإخباره بأنه منع الثالثة .

وإخباره بوقوع السيف وأنه لا يرفع إذا وقع .

وإخباره بإهلاك بعضهم بعضا وسبي بعضهم بعضا، وخوفه على أمته من الأئمة المضلين .

وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة .

وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة .

وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون في العقول

[الشرح] :تعم هذا نحو عشر آيات من آيات النبوة أخبر بها النبي ﷺ وكلها وقعت كما أخبر ﷺ قال الشيخ مع إنه أبعد في العقول قد يتفاجأ السامع في وقت النبي ﷺ كيف يقع ذلك لكن الأمر وقع كما أخبر النبي ﷺ ، فهذه عشر آيات من آيات النبوة من تأملها وطبقها على الواقع وجد أنها مطابقة غاية الانطباق

- الثالثة عشرة : حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين .

[الشرح] :نعم الحصر بقوله: " وإنها " فالأئمة المضلون يحصل بضلالهم ضلال من خلفهم

- الرابعة عشرة : التنبيه على معنى عبادة الأوثان .

[الشرح] :في قوله: " وحتى تعبد فتأم من أمتي الأوثان " .

وصلي الله علي نبينا محمد آله وصحبه أجمعين؛